وإذا كان الواحد الصحيح رمز التوحيد والوحدة، فإن سبعة رمز الكثرة هى ومضاعفاتها..

هذا التشبيه يستبعد أن يكون المدد فيه زيت السراج كما يسمح بهذا تشبيه سورة الكهف..

وتأمل بحارا متتابعة تمد أقلامها كل أشجار الأرض.. وشجر الأرض نبات متجدد.. والبحار وراءها بحار..

ثم تأمل الجملة الخاتم فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ هكذا بلفظ الجلالة ويأتى في الآية مرة ثانية بعد قوله تعالى: ﴿ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ هنا يبدو جلال الله وعظمته وفى سورة الكهف يبدو علم الله ورحمته: تحسها في تكرار لفظ ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ وتكرار لفظ الرب، بالضمير المتصل، ومن صفات الجلال والجمال تمتلىء النفس حبا لله، وتطلعا إلى رحمته، وخشية من مؤاخذته وعذابه..

فلكل من الآيتين هدف، ولكل منهما في النفس تأثير، وكل منهما تتكامل مع السياق الذى جاءت فيه.. وصدق الله العظيم:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٦٠ـ العقيدة والحياة في آية

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

نصل إلى الآية الخاتم في سورة الكهف وفيها خلاصة السورة كلها، بل خلاصة الدعوة الإسلامية في شمولها.. ولننظر إلى هذه الركائز:

أولا: قل: والرسول ﷺ يتلقى الأمر من ربه. ولفظ قل يحمل الإيمان بالألوهية. فالله خالق كل شىء وبالربوبية، فهو الذى أنشأنا، ورعى الإنسان وهو جنين في بطن أمه وجعل له السمع والبصر والفؤاد، فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

ثانيا: إنما أنا بشر مثلكم، فمحمد ﷺ بشر، يصدق عليه ما يصدق على البشر من حمل وميلاد وحياة وموت، ومر كما يمر أي إنسان في مراحل الطفولة والشباب والكهولة، حتى توفاه الله، وعاش حياته ابنا لأب وأم، وزوجا، وأبا، وجدا، وصديقا، وعاش حياته العامة شابا طاهرا، وتاجرا أمينا، حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين،وعاش في الدعوة بعد هذا يحمل المسؤلية التى يبينها الجزء الآتى من الآية.

ثالثا: يوحى إلى ولم يكن هذا منه اختيارا ولا رغبة، فالله تعالى يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

واستمر هذا الوحى في حياته من سن الأربعين إلى أن لقى ربه في الثالثة والستين.. ثلاثة وعشرون عاما، ينزل على قلبه وحى السماء، يبلغه أصحابه ويكتبونه ويحفظونه ويطبقونه.. فكان القرآن الكريم، هو الكتاب الوحيد الذى قامت دولته والوحى ينزل. وكان أصحاب محمد هم المجموعة التى تطبق القرآن آية آية، وكان المجتمع الإسلامى الأول هو التفسير الحى الناطق للقرآن الكريم.

ولقد جاء هذا الوحى، ليربط الإنسانية من مبدئها إلى غايتها والوجود من فجره إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ويربط جوانب المجتمع: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والداخلية والخارجية،يربط الفرد بالأسرة والأسرة بالمجتمع والمجتمع بالإنسانية كلها، في إخاء شامل، ويدعوها إلى عمران الحياة بنور الوحى، ونور العلم، في جو من التعاون على البر والتقوى.

إن القرآن هو كتاب الحياة والإحياء: إحياء النفوس والأمم: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الانعام: ١٢٢)

رابعًا: إن مدار هذا الوحى هو التوحيد وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ هذه شهادة الحق التى قامت بها السماوات والأرض وصدق الله العظيم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ إسلام النفس لله تقتضى التحقق بأوامره ونواهيه، والسير في الحياة، مع التحرير من كل عبودية دون عبودية الله، والتخلص من رق الشهوات والأهواء وعبادة الأفراد والمناصب، بحيث لا تبقى فوق الفرد المؤمن إلا قوة الله تعالى.. وهنا تلتقى الحرية مع العبودية.. يلتقى التحرر من كل هذه القيود مع طاعة، الله واتباع النور الذى جاء به.. إله واحد.. فرد صمد لا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد.. رب السماء والضياء.. رب كل شئ ومليكه.. له الخلق والأمر.. تبارك الله رب العالمين.

خامسًا: الدعوة إلى الله: وهذا قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ وهنا مرة أخرى تحس الإيناس في قوله تعالى: ﴿ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ وكأن الإيمان تعاقد بين الخالق الواهب، والمخلوق الذى أكرمه الله بنعمة الوجود والحياة والعقل والتفكير وكأن الآية تنادى كل إنسان أن أقبل على ربك.. إنه لقاء الرحمة والهداية في الدنيا، ولقاء المغفرة والرضوان في الآخرة.. و﴿ يَرۡجُواْ ﴾ هنا فيها الأمل والتوجه والتطلع إلى لقاء الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولا نوم.

سادسا: العمل الصالح: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ وقد تحدثنا عن العمل الصالح. إنه كل جهد فكرى أو إبداعى أو يدوى أو تنظيمى أو تطويرى يزكو به وجه الحياة. العمل الصالح ليس قوالب مسكوكة ولا أنماطًا مرسومة كأنها خلايا النحل السداسية، أو هجرة الطيور الفصلية. العمل الصالح جهد متطور يستجيب لحاجات المجتمع: محافظة على خير ما فيه من القيم الأصيلة، وتفتحًا على العالم حوله، ومشاركة في ركب الحياة المتدفق، مشاركة تقوم على الفهم والإبداع، دون الاقتصار على الاستهلاك والرضا بقشور الحضارات الأخرى والوقوف عند ظواهرها.

وإن أكبر ما أصابنا أننا أخذنا ناتج الحضارات الأخرى دون أن نأخذ أساليبها أخذنا السلعة وتركنا المنهج وهذا الذى بين أيدينا القلم الذى أكتب به، والورق الذى أكتب عليه، وأوراق كتاب الله أمامى.. بل حتى المداد الذى طبع به كتاب الله، والغلاف الذى يحفظه، والنور الذى أستضئ به..

وبعض ما أرتدى من ملابس الصيف والشتاء.. وأداة الانتقال التى أتحرك بها في بلدى أو من قطر إلى قطر، أكثر هذا من إنتاج أيد غريبة لا تدين بالإسلام.. والعمل الصالح يقتضينا أن ننتج هذا كله أو أكثر، وهنا يحتاج إلى تغير جوهرى في برامج التعليم والتربية وإعداد النشء للحياة الجديدة. إنه محتاج إلى عزيمة وصبر، وحب لبذل الجهد وسعادة بالعمل والإنتاج والإبداع.

ولقد مر المصطفى ﷺ يومًا على بعض المهاجرين إلى المدينة، وكانوا في مكة تجار. وأصبحوا بعد الهجرة يزرعون، وأصبحت أيديهم خشنة من آلات الزراعة ومعالجتها فأمسك بيد أحدهم ووضعها بين يديه وهو يقول: "هذه يد يحبها الله ورسوله"، ولقد استجاب الصحابة للتحدى الحضارى الذى واجهوه وهم يكونون قاعدة الإسلام في المدينة فكان منهم العمل الصالح، ترجموا هذه الكلمة إلى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع والجيش.. ترجموها إلى حفظ القرآن والحياة به.. ترجموها إلى صياغة مجتمع جديد غير مسبوق.

كل هذا من العمل الصالح الذى يرضى عنه الله.. وكل مراحل الحضارة الإسلامية في امتدادها المكانى أو امتدادها الفكرى واتصالها بالحضارات العالمية وقيامها بالترجمة عنها والإفادة منها، وإخضاعها لقواعد النقد العلمى والإضافة إليها.. كل أولئك عمل صالح.. وما تقوم به مجتمعاتنا المعاصرة من محاولات التعاون على صعيد الوحدة الوطنية، أو العمل الإقليمى أو العربى أو الإسلامى أو العالمى.. كل أولئك من العمل الصالح.

سابعا: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ وفى شرح هذا الجزء من الآية نعود إلى حديث رسول الله ﷺ

قيل: نزلت هذه الآية في جندب بن زهير.قال لرسول الله ﷺ إنى أعمل العمل لله تعالى فإذا أطلع عليه أحد سرنى..فقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا يقبل ما شورك فيه" وروى أيضا أنه قال: "لك أجران أجر السر وأجر العلانية" ويعقب الإمام الفخر الرازى على هذا بقوله: الأولى محمولة على ما إذاقصد بعمله الرياء والسمعة،والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به.والمقام الأول مقام المبتدئين،والمقام الثانى مقام الكاملين. اهـ.(١٧٧:١١ –١٧٨)

فصورت الآية ثلاثية الأبعاد.. وما جاء به الوحى هو:

- أولاً: وحدانية الإله.
- ثانيًا: إثبات البعث.
- ثالثًا: الأعمال الصالحة.

ونستطيع أن نراها بصورة أخرى: تصور الإنسان طائرًا محلقًا: وجهته لقاء الله، وأحد جناحيه التوحيد، وجناحه الآخر العمل الصالح، وفى تحليقه يتجنب الشرك كما يتجنب الطائر عقبات الطريق..

بقيت بعد هذا كلمة ختامية في سورة الكهف تتعلق بتسلسل القصص فيها.. لقد بدأت بقصة أهل الكهف والغالب فيها هو الجانب الإلهى الغيبى ولم يكن من الفتية إلا الاعتزال بإيمانهم، ثم تولت يد القدرة بعد هذا أمر النوم واليقظة، ثم كان منهم التشاور والتلطف، ثم توفاهم الله.. وفى قصة الصاحبين والحوار حول الجنة وإغراء المال، كان من الرجل المؤمن الدفاع عن إيمانه في مواجهة صاحبه غير المؤمن، وكان الانتقام من الله بأن أرسل على الجنة حسبانًا من السماء..

وفى قصة موسى والخضر، نجد أدب العلم والتعلم، وفى قصة ذى القرنين نجد الجانب الإيجابى من العمل المشترك هو الغالب والبارز، ولعل هذا هو الهدف الأكبر أن يتحول المؤمنون إلى مجتمع من العاملين القادرين على حماية عقيدتهم وأنفسهم وديارهم بجهودهم وإيمانهم، ويأتى ختام القصة مؤكدًا مصادر القوة في بناء الحياة: الإيمان بالله، والبعث، والعمل الصالح.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.